حضارة سبإٍ كما صورها القرآن الكريم والدورس المستفادة منها

إعداد
الدكتور / عبد الفتاح عبد العزيز حسين
مدرس بقسم الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذى خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وفضله على كثير من خلقه ، ليحظى بالعبودية لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على مبعوث العناية ورسول الرحمة والهداية سيدنا – محمد صلى الله عليه وسلم – الذى أرسله ربه على فترة من الرسل ، ليأخذ بيد البشرية إلى الطريق القويم .

وبعد

فالقرآن الكريم هو النبع الذى لا ينضب ولا يغيض ، وفيه الهدى لمن أراد الهداية وفيه الرشد لمن أراد الرشاد .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن بعض الحضارات السابقة ، وبين لنا ما تضمنته هذه الحضارات من حق أو باطل ، وما كان عليه أهلها من استقامة أو اعوجاج ، لنتعرف من خلالها على جوانب الخير فنتبعها – حيث عاش أصحابها آمنين مطمئنين حينما أخذوا بها – نعرف أيضا أنهم حينما زاغوا عن الحق ضلوا وأضلوا .

وحديث القرآن الكريم عن الحضارات السابقة وما آلت إليه ، ذكرى لأولى الألباب وعبرة لأولى الأبصار .

وقد اخترت – بعون الله تعالى وقوته – حضارة سبأ لما لها من أهمية بالغة ودروس مستفادة تخدم مجال الدعوة إلى الله – عز وجل –

أسباب اختيارى للبحث :

وأما عن الأسباب التى دفعتنى لاختيار هذا البحث فالخصها فيما يلى :

١ – إن حديث القرآن الكريم عن حضارات السابقين هو أصدق الحديث وأكمله ، وأجله ، لانه كما قال الحق سبحانه " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد "(١).

٢ – إننا إذا أخذنا حضارات السابقين من معين القرآن الكريم ومنبعه الصافى فإنها تأخذ بايدينا إلى الطريق القويم ، الهادى إلى صراط الله المستقيم ، فمن المعلوم أن للقرآن الكريم قوة ذاتية تدفع بالعقول إلى معرفة الحق وجلاله ، وتأخذ بالألباب إلى اعتناق الصدق ، لأن هذه القوة مستمدة من نور الوحى الإلهى ، الذى يؤمن للناس سيرهم ، ويحرص على مافيه خيرهم .

٣– فى قصص القرآن الكريم عن أهل سبإ نجد أن العبرة امامنا ماثلة كما هى ماثلة فى غيرها من قصص السابقين ، وهذا هو شأن القرآن الكريم فى حديثه عن السابقين ، يركز على موطن العبرة من الحدث ، حتى تعيها العقول ، وتستجيب إليها ، وتذعن لدعوة الحق –جل جلاله –

٤ – إن دراسة هذه الحضارة من القرآن الكريم تكسب رجال الدعوة وأصحاب الفكر السديد مزية يتفردون بها عمن سواهم ، وهذه المزية تتمثل فى حسن العرض وكيفية التوجيه والثبات على المبدأ الذى يدعون له ، لأنهم ينطلقون بدعوتهم من هذا الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل ولا يعتريه التحريف ، هذا الكتاب الذى يشتمل على الهدى الذى يهدى إلى الصواب ، وعلى النور الذى ينير طريقهم ويأخذهم إلى مافيه عزهم ومجدهم .

لكل ذلك اخترت حديث القرآن عن حضارة سبإ لما لها من أثر عظيم فى حياة المؤمنين ، فبها يعتبرون ، وعلى منهج قرآنهم يسيرون .

---

(١) سورة فصلت : اية رقم : ٤٢ .

وقد عرضت هذا البحث فى النقاط التالية :

اولا : ما هى الحضارة ؟ التعريف بها عند علماء اللغة ، وبعض الباحثين ، الحضارة بين الفكر الإسلامى والمفاهيم الاخرى ، والحضارة فى نظر بعض المعاصرين .

ثانيا : حديث القرآن الكريم عن أهل سبأ وتحدثت فيه عن حضارة سبأ وأسباب نهضتها ، وذكرت طرفاً من مظاهر العظمة فى هذه الحضارة .

ثالثا : لماذا انهارت حضارة سبأ ؟ وبينت أن ذلك راجع إلى عدة نقاط وهى :

١ – نسيان الخالق سبحانه وتعالى والإعراض عن توحيده وشكره

٢ – كفر النعمة وجحود المنعم – سبحانه وتعالى –

٣ – طغيان المادة وإغفال جانب الروح .

رابعا : الدروس المستفادة من حضارة سبأ .

وقد بينت من خلال هذه الدروس مدى حاجتنا إلى معرفتها لنأمن فى الدنيا والآخرة ، ونصل إلى ما فيه الخير لنا ولكافة المسلمين أجمعين .

منهج الدراسة :

وقد سرت فى هذه الدراسة على المنهج التحليلى ، والذى أعطانا من خلال هذه الآيات الموعظة الكاملة والمؤثرة ، التى تبعث فى النفس الخوف والرجاء ، وهما القطبان العظيمان فى الدعوة إلى الله تعالى .

والله العظيم نسأل ان يأخذ بأيدينا إليه ، ويدلنا على ما يدلنا عليه ، وهو سبحانه وتعالى حسبنا ونعم الوكيل ، كما نسأله سبحانه أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

ما هى الحضارة ؟

عن مادة " حضر " التى هى أساس كلمة الحضارة يقول المعجم الوسيط حضر فلان : حضارة ، حضارة : أى أقام فى الحضر ، وحضر الغائب حضورا : قدم ، حضر الشئ والأمر : جاء ، وحضرت الصلاة : حل وقتها و حضر عن فلان : قام مقامه فى الحضور ، وحضر المجلس ونحوه : شهده ، وحضر الأمر فلانا : نزل به ، وفى التنزيل العزيز : " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ "(١) .

- وأحضر الشئ : أتى به ، وقوله تعالى : " وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ " (٢) مالت إليه .

و - حاضر القوم : جالسهم وحادثهم بما يحضره ، ومنه فلان حَسَنُ المحاضرة ...

- وحَضَّرَ الشئ : أعده ، يقال : حضر الدواء وحضر الدرس ، وحضر الأدوات اللازمة للتجارب .

و- الحاضر : القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه .

و- الحاضرة : القوم الحضور ، وحاضرة الشئ : القريبة منه ، وفى التنزيل العزيز " وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ "(٣)

- والحاضرة : خلاف البادية ، والتجارة الحاضرة : مايباع نقدا يدا بيد ، وفى التنزيل العزيز " إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم "(٤) والجمع حواضر .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٠ .
(٢) سورة النساء : آية ١٢٨ .
(٣) سورة الأعراف : آية ١٦٣ .
(٤) سورة البقرة : آية ١٨٢ .

- والحَضارة : بالفتح والكسر : الإقامة فى الحضر ، قال القطامى: ومن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا

- والحضارة : ضد البداوة ، وهى مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى.

- والحضارة : مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى(١) .

وبالتأمل فى المعانى السابقة لمادة حضر ومشتقاتها نجد أن الكلمة واسعة المعانى ، متعددة الدلالات المادية والمعنوية ، الأمر الذى يستلزم أن نعوّل على أقوال بعض الباحثين فى هذا المجال ليزداد المعنى وضوحا .

يرى بعض الباحثين ان الحضارة كذلك تعنى كل ما أنتجه الإنسان وتأثر به من علوم ومعارف وخبرات وفنون وآداب ، ومن تراث مادى وروحى ، ومن صناعة واختراع وطرق فى التفكير والسلوك ، ومن رؤى ومفاهيم ومدركات ،والحضارة باختصار : هى مجموع أعمال الإنسان فى البيئة أو فى المكان والزمان الذى يعيش فيه ويتأثر به ويؤثر فيه)(٢) .

هذا عن الحضارة وما تعنيه ، وأما من ناحية تأثر الحضارة بغيرها من الحضارات فهى ليست قاصرة على المكان الذى يوجد فيه الإنسان ، أو الزمان الذى يعيشه وإنما قد يتأثر الإنسان بحضارة من سبقوه فى الزمان ، وخالفوه فى البيئة والمكان ، وأيضا هو يؤثر بفكره وحضارته فى غيره ، سواء الذين عاصروه فى الزمان ، أو تباعدوا عنه فى المكان .

---

(١) المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية ، د / ابراهيم أنيس وآخرون – ج١ ص ١٨٠ ، ١٨١ بتصرف – الطبعة الثانية – دار المعارف سنة ١٩٧٦م .

(٢) مجلة الأزهر : عدد جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ – أغسطس ٢٠٠٤ م ، ج/٦ سنة ٧٧ ص٩٧٠ – مقال . د / محمد ابو ليلة . بعنوان : الحضارة الإسلامية طبيعتها وسماتها .

الحضارة بين الفكر الإسلامى والمفاهيم الأخرى :

تتلخص رؤية الفكر الإسلامى للحضارة فى كونها (حضارة يمثل الوحى الإلهى فيها حجر الزاوية ، ويمثل الوسطية ركناً من أركانها ، ويصير دورها بالنسبة لباقى الحضارات دور الشاهد الذى يشهد لهذه الحضارات أو ليشهد عليها ، ويلزم ذلك أن يكون أنموذج هذه الحضارة مستمداً ، يستعصى على الذوبان أو التلاشى أو الانسحاق فى حضارة أخرى لا تنطلق من نفس القيم أو الثوابت التى تنطلق منها حضارة الإسلام ، وإن كانت تتفاعل وتتجاوب مع أية حضارة تحترم هذه القيم والثوابت) (١)

وهذا يعنى أن الحضارة فى مفهوم الإسلام تمتاز عن غيرها من الحضارات بعدة سمات تميزها عن غيرها من الحضارات المزعومة سواء السابقة لها أو الاحقة عليها .

فالحضارة التى تقوم على أساس من الوحى الإلهى حضارة ربانية لأن الوحى الإلهى فى مبادئه العقدية والتشريعية والأخلاقية هو العاصم للمستمسكين به ، أما الحضارات الوضعية التى تقوم على اجتهادات بشرية فلا تؤمن للناس سيرهم ، ولقد رأينا كم شقى الناس بحضارات وضعية سابقة أو لاحقة حينما تمسكوا بها ، الأمر الذى يدعونا إلى القول بأن الحضارة الإسلامية حينما نتعامل مع غيرها من الحضارات نجدها تتعامل معها بأخلاق ثابتة راسخة تستوعب البشر جميعا على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وديناتهم فمبدأ " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " (٢) مبدأ أساسى ومستقر فى عقيدة كل مسلم .

---

(١) حقيقة الإسلام فى عالم متغير : العدد ٨٧ سلسلة قضايا إسلامية إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م - بحث . د / أحمد الطيب . بعنوان : خصائص الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٨١ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

وحينما يقول لنا الوحى الإلهى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ "(١) نعلم أن هذا يدعونا أن نستوعب جميع من حولنا .

ويقول أحد المفكرين (يمكن أن نحدد بعض خصائص الحضارات الإسلامية فى أنها :

١ – حضارة مؤسسة على الوحى الإلهى .

٢ – وعلى القول المنضبط بالوحى .

٣ – وعلى الأخلاق الثابتة .

٤ – ثم هى حضارة منفتحة ومستوعبة .

٥ – وأخيراً هى حضارة مسالمة (٢)

وهذه الخصائص التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية من شأنها أن تعلى من قدرها وتميزها عن غيرها فبالوحى وبالعقل المنضبط بهذا الوحى لا يكون هناك خطأ ، وبالاخلاق تكون صلة الحضارة بغيرها على خير ما يكون وعلى أوفى ما ينبغى لها ، وبالسلم والانفتاح على العالم والتجاوب معه يكون الأمن ويكون السلام الذى ينشده العالم ، ومن ثم فالقول بأن حضارة الإسلام حضارة صالحة لقيادة العالم ، قول رشيد سديد ، فبها تسعد الدنيا وتستظل بنعم الأمن والسلام ، كما سعدت من قبل حينما استظل العالم بظلها وعاشوا فى كنفها ، والتاريخ شاهد بذلك

يقول أحد الباحثين: (الحضارة الإسلامية لها عدة مميزات ، فهى تتسم بالاتساع والشمول وبالتعددية والتنوع ، والمثالية ، والواقعية إلى

---

(١) سورة الحجرات : اية ١٣ .

(٢) حقيقة الإسلام فى عالم متغير مرجع سابق - بحث . د / أحمد الطيب . ص ٨٠ ، وانظر : قيم حضارية فى القرآن الكريم . للأستاذ / توفيق محمد سبع ج٢ ص ٦٩ وما بعدها طبعة دار المنار – بالقاهرة – بدون تاريخ .

جانب أنها حضارة ربانية من حيث إنها قائمة على القيم الإسلامية ... ولذلك فإننا نلاحظ أن قيمة الإسلام ليست محصورة في بيئة مكانية أوفي حقبة زمنية معينة ، كما أن الحضارة الإسلامية لا تشكل أحكاماً ضعيفة أو زمنية جامدة تنتهي صلاحيتها بعد حين من الدهر ، فإننا إذا ما نظرنا إلى مسألة حقوق الإنسان مثلا ، فإننا نجدها محددة تماما في الإسلام مرتبطة بالعقيدة والشريعة ، بمعنى انه لا يمكن تغييرها أو تجاوزها ، وفي هذا ضمان لها من ان تعبث بها أهواء الناس) (١)

الحضارة في نظر بعض المعاصرين :

تتفاوت وجهة نظر المعاصرين حول معنى الحضارة بحسب توجهاتهم العلمية والدينية والمذهبية ، فمثلا يرى البعض أن الحضارة (نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، وتتألف من عدة عناصر هي :

الموارد الإقتصادية ، والنظم السياسية ، والقيم الخلقية ، والعلوم والفنون والمعارف والفلسفات ، ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة ، من دينية ولغوية وجغرافية ، ولانهيارها عوامل هي : الاختلال والفساد والظلم والترف وانتشار التشاؤم ، وفقدان القيادة الصالحة ...

ويرى بعض اخر ان (الحضارة تعني الحصيلة الشاملة المدنية والثقافية ، فهي مجموع الحياة في صورها وانماطها المادية والمعنوية ... وهو تعريف يشير إلى جناحي الحضارة وهما : المادة والروح ، حتى تلائم فطرة الإنسان ، وتتجاوب مع مشاعره وعواطفه وقدراته) (٢)

هكذا يرى بعض المعاصرين الحضارة حسب ثقافته وتوجهاته وتأثره بمذهب أو دين .

---

(١) مجلة الأزهر مرجع سابق : مقال الدكتور / محمد أبو ليلة ص ١٧٤ بتصرف يسير .

(٢) قيم حضارية في القرآن الكريم عالم ما وراء القرآن : للأستاذ / توفيق محمد سبع ج١ ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف.

ومن أوجز التعريفات قول بعضهم : أن الحضارة سلسلة متصلة يتأثر بعضها ببعض ، ويمتص بعضها من بعض ، ولكل أمة جهدها فى تشييد الصرح الحضارى ، وترجع عظمة الحضارة إلى متانة المقومات التى تقوم عليها والدساتير التى تستقى منها ، والآثار العالمية التى تتركها، وخلود الحضارات إنما يعنى أصالة جوهرها واتساع آفاقها ، وعالمية رسالتها وإنسانية نزعتها وواقعية مبادئها (١)

والإسلام قد وضع لحضارته أسساً وقواعد قوية ومثالية وتتصف بالشمولية والوسطية والعالمية،مما يجعل هذه الحضارة نافعة على الدوام وصالحة لكل البشر،ومخالفة لكل الحضارات المعاصرة التى تدعى لنفسها الذيوع والانتشار والتقدم والإزدهار،كل هذا إشتملت عليه حضارة الإسلام التى استقت مبادئها،وعرفت ملامحها،وحددت قسماتها من المصدرين الاصيلين وهما : القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهذان المصدران هما : الوحى الإلهى ، الذى يعصم العالم من الذلل ويبعده عن الخطأ .

(١) المرجع السابق ص ٣١ .

حديث القرآن الكريم عن سبأ :

والحديث عن هذه الحضارة – أعنى حضارة سبإ من خلال آيات الذكر الحكيم يستلزم منا أن نكشف الجوانب التالية :

أولا : وجودها .

ثانيا : أسباب نهضتها .

ثالثا : لماذا انهارت " أسباب انهيارها " .

رابعا : الدروس المستفادة للأمة من خلالها .

أولا : وجودها :

فأما عن وجود هذه الحضارة ، فإن القران الكريم يقص علينا خبرها فى قوله سبحانه وتعالى " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ "(١)

ويشرح الحافظ الإمام ابن كثير هذه الآية فيقول (كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكان التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد)(٢)

فهذه الحضارة إذن كانت باليمن فى زمن بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، كما ذكره العلامة القرطبى فى تفسيره (٣) ولكن الذى نود أن نعرفه عن سبأ يتلخص فى هذا السؤال :

---

(١) سورة سبأ : اية ١٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : للإمام الحافظ ابن كثير ج٣ ص ٥٢٠ – طبعة شباب الأزهر مكتبة الدعوة – بدون تاريخ .

(٣) الجامع لاحكام القران : للإمام ابى عبد الله القرطبى ج١٤ ص ٢٨٥ – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م – دار الفكر – لبنان – بيروت ، وانظر : تفسير الكشاف ج٣ ص٥٥٩ – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م – دار الكتب العلمية لبنان بيروت .

ما هود سبأ ؟ أهو اسم لمكان أم لرجل أم لقبيلة ؟

يرى الإمام فخر الدين الرازى أن الراجح أنه اسم قبيلة فيقول:(وفى سبإ قراءتان ، بالفتح على أنه اسم بقعة ، وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر ، لأن الله تعالى جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل ، لا المكان ، فلا يحتاج إلى إضمار الاهل) (١)

ويزداد الأمر وضوحا عند الإمام ابن كثير فيما يرويه عن الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه فيقول: (قال الإمام أحمد – رضى الله عنه – حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن بن وعلة قال سمعت ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم – عن سبإ ماهو ؟ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال – صلى الله عليه وسلم – " بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والازد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان ... وعن فروة ابن مسيك – رضى الله عنه – قال أتيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فقلت يا رسول الله أرأيت سبأ ما هو ؟ أواد أو جبل او ماهو؟ قال - صلى الله عليه وسلم – : " لا بل هو رجل من العرب ولد له عشرة فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار الذين يقال لهم بجيلة وخثعم ، وتشاءم لخم وجذام وعاملة وغسان " وهذا أيضا إسناده حسن) (٢)

والذى نرجحه هو ما ذكره الإمام الفخر الرازى وكذا العلامة ابن كثير ، وهو أن سبأ علم على رجل ومنه كانت قبيلة كبيرة ، وصار ذلك علماً عليها ، وليس هو اسم مكان كما يرى البعض ، ويؤيده أيضا ما جاء فى بعض المعاجم اللغوية أن (سبأ : اسم رجل جمع عامة قبائل

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير : للإمام فخر الدين الرازى مجلد ١٢ ج٢٤ ص ٦٥١ الطبعة الأولى ١٩٩٢م – ١٤١٢هـ – دار الغد العربى ، وانظر : تفسير القرآن العظيم ٥٣١/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥٣٠ بتصرف يسير .

اليمن ... وفى المثل " تفرقوا أيدى سبأ " وأيادى سبأ : ضرب بهم المثل فى التفرق ، لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم تبددوا فى البلاد ، فأخذت كل طائفة منهم طريقا) (١)

نسب سبأ ولماذا سمى بهذا الاسم ؟

وإذا كان سبأ علماً على رجل تكونت منه قبيلة ، أو عدة قبائل على الراجح فإن معناه كما يقول (علماء النسب ومنهم محمد بن اسحاق اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقالوا:وكان أول من سبى من العرب فسمى سبأ لذلك وكان يقال له الرائش لأنه كان يعطى الناس الأموال من متاعه ، قال السهيلى ويقال إنه أول من تتوج، وذكر بعضهم أنه كان ... له شعر بَشَّرفيه بوجود رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمن ذلك قوله :

سيملك بعدنا ملكا عظيما	نبى لا يرخص فى الحرام
ويملك بعده منهم ملوك	يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منهم ملوك	بغير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبى	تقى جبينه خير الأنام
يسمى أحمداً ليت أنى	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى	بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه	ومن يلقاه يبلغه سلامى (٢)

هذا معنى سبأ ، وعلى ما يبدوا أنه سمى بذلك لأنه أول من سبأ من العرب أى غنم الغنائم فى الغزو ، ولا نستبعد أنه بشر بمقدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى زمانه ،**فالشعر هو سجل العرب وتاريخهم ولا غرابة فى ذلك ، فلقد بشر برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى التوراة والإنجيل من قبل ، على ما هو مشهور ، فليس فى الأمر عجبا .**

---

(١) المعجم الوسيط : مرجع سابق ج١ ص ٤١١ باختصار .

(٢) البداية والنهاية : للإمام الحافظ ابن كثير مجلد ١ ج٢ ص ١٤٧ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ م – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

ونخلص مما سبق الى أن حضارة سبأ التى قصها علينا القرآن الكريم كان لها وجود فى بلاد اليمن ، وكما ذكر الإمام القرطبى أنها كانت فى زمن بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وأنها كانت ذات حضارة ، وهذه الحضارة كانت لها من القيم والمبادئ ما جعل لها ذكرى فى بنى الإنسان ، ولذا ورد ذكرها والحديث عنها فى القرآن الكريم فى هذه السورة التى سميت باسمها ، وأيضا فى سورة النمل ، وذلك فى قوله تعالى عن سليمان عليه السلام : " وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لاعذبنه عذابا شديدا أولاذبحنه أولياتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " (١)

والآيات تشير إلى أن هذه المرأة كانت بأرض أهل سبأ ، وأنها كانت ملكة وحاكمة على أهل هذه البلاد فترة من الزمان ، وأنها كانت على غير الإسلام هى وقومها ، فلما أحيط الهدهد علما بحالهم جاء ليخبر سليمان – عليه السلام – بما هم عليه من الشرك والضلال .

وفى قوله تعالى : أحطت بما لم تحط به " يقول العلامة ابن كثير أى اطلعت على مالم تطلع عليه ، " وجئتك من سبإ بنبإ يقين " أى بخبر صادق (٢) " إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم "

يقول صاحب الكشاف : المرأة بلقيس بنت شراحبيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس ، والضمير فى " تملكهم " راجع

---

(١) سورة النمل : الآيات من ١٩ – ٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ١٩ .

إلى سبأ ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر ، وإن أريدت المدينة فمعناه ملك أهلها) (١)

هذا ولم أعثر على المدة التى عاشتها هذه الحضارة بالتحديد ، إلا أنه بالقطع أنها كانت حضارة لها مدة غير قصيرة ، ولها من القيم والمبادئ ما خلد ذكرها فى القرآن الكريم ، وهو ما سنوضحه إن شاء الله تعالى فى النقطة التالية .

ثانيا : أهمية حضارة سبأ وأسباب نهضتها :

وحضارة سبأ كانت ذات أهمية عظمى ، لانها كانت على قدر كبير من الابهة والفخار والعظمة ، وقد بلغت فى ذلك شأوا كبيرا ، ويخبرنا القرآن الكريم بما كان عليه أهل سبأ وهم الذين قطنوا بلاد اليمن بأنهم كانوا فى نعمة عظيمة ، وفى غبطة وفى رغد من العيش واتساع من الرزق ، وأن اليمن كانت ذات حضارة وهذه الحضارة لم تكن حضارة عادية ، بل كانت فى بدايتها تقوم على أسس قوية ومبادئ عظيمة أوصلتها إلى ما كانت عليه ، وأن السبب فى ذلك هو طاعتهم لله رب العالمين، وانقيادهم للمنهج الإلهى الذى أمنهم من العثرات وأبعدهم عن الضلالات ، فلذلك ازدهرت بلادهم وغت ، وكثرت أرزاقهم .

وسبب آخر وهو شكرهم لله – عز وجل – على نعمه " كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور "

ويقص علينا القرآن الكريم خبرهم وسبب نهضتهم هذه فيقول " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ " (٢)

والآية الكريمة تصور لنا ما كان عليه أهل هذه البلاد لدرجة أنها تقول " آية جنتان عن يمين وشمال " فوصفت المساكن التى كانوا يسكنونها

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : للإمام أبى القاسم الزمخشرى ج٣ ص ٣٤٩ – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .

(٢) سورة سبأ : آية ١٥ .

بأنها كانت آية فى الجمال ، آية فى البهجة ، وهى أيضا وسط بين جنتين عن يمين وشمال وحينما يخبر الحق سبحانه – بذلك ، فالتصور يكون على أفضل ما يكون ، لأن المساكن الجميلة ، والجنان ذات الظلال الوارفة والهواء الطيب النقى ، كل هذا من شأنه إسعاد النفس وراحة القلب ، فالمنظر الجميل الذى يحضر فى النفس من خلال تصوير القرآن الكريم لهذه المساكن ، وتلكم الجنان يجعل النفس أوفر حظا وأعظم راحة ، وعندئذ يتوق أصحاب النظر السديد ، والفطر المستقيمة إلى الجد والعمل على شكر الله – تعالى – وتوحيده والعمل وفق ما يحب ويرضى .

ويعلق أحد المفكرين على هذه الآية فيقول : " وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن ، وكانوا فى أرض خصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم ، وقد ارتقوا فى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الامطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، وأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم ، فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم ، وقد عرف باسم " سد مأرب " وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب سبحانه وتعالى وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين (١)

ويمكن أن نلخص أسباب نهضة هذه الحضارة فيما يلى :

١ – الطاعة لله رب العالمين :

وعنصر الطاعة حينما يتوفر فى أمة من الأمم ، فإن حال هذه الأمة يكون على قرار مكين من الأمن والسكينة وراحة البال ، فربط الأمة بربها يوفر لها كل سبل الراحة والتقدم ، والأخذ بيدها إلى أقوم طريق ، وهو ما حدث لأهل سبأ حينما أطاعوا ربهم الذى أنعم عليهم .

---

(١) فى ظلال القرآن : للأستاذ : سيد قطب ج٥ ص ٢٩٠٠ الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٧م ١٤٠٧ هـ – دار الشروق .

٣ – إغداق الله – عز وجل – نعمه عليهم : وهذا الإغداق وفر لهم هذه الحياة الكريمة الهنيئة .والآية الكريمة تشير إلى أن نعم الله تبارك وتعالى عليهم كانت عظيمة جليلة ، فمساكن طيبة ذات منظر بديع وهواء جيد ومزاج عال .

يقول الإمام ابن كثير (ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المراد كانت عشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أوزنبيل وهو الذى تخترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يلموه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه .... وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شئ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شئ من الهوام لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله تعالى بهم ليعبدوه ويوحدوه)(١)

وصدق الله تعالى إذ يقول " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" (٢)

٣ – الأخذ بأسباب التقدم: فقوم يأخذون بأسباب التقدم ، وهم على صلة بالله – عز وجل – وفى رغد من العيش ، لاشك أنهم يصلون إلى أقصى غاياتهم ، وقد كان أهل سبأ على أحسن حال فى ذلك ، فحضارتهم قد بلغت فيها دقة الفن وهندسة التنسيق - كما ذكر- إلى درجة عالية حتى وصفها القرآن فى قوله تعالى " لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال " .

٤ – بناء سد مأرب ، وأما ما كان من أمر هذا السد فإنه قد بنى لأجل غاية نبيلة فى أولها وهى حجز الماء والعمل بنظام الرى التى تكفل للزراعات ريها ، وتضحيها ، وعدم ضياعها بالغرق أو التصحر والجفاف ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥٣٣ باختصار ، وتفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ج١٤ ص ٢٨٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٦.

فكان السد سببا قويا فى نهضة بلادهم وازدهار حضارتهم ، وهو وإن كانت الغاية منه مادية صرفة إلا انه أدى دورا مهما لهذه الحضارة .

يقول الإمام ابن كثير (وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين ويجتمع اليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن) (١)

لكن هل أدى بناء السد لدى هؤلاء إلى قيم أخرى روحية غير القيمة المادية التى بنى من أجلها ؟

الجواب : أن ذلك واضح فى أنه لم يؤد إلى قيام حضارة ذات روحانية إلى جانب المادية التى كانوا عليها .

جنوح حضارة سبأ وإعراضهم عن الله – تعالى – إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢).

هل بقيت سبأ على ما كانت عليه أم أنها جنحت إلى المادة ، وأهملت القيم العظيمة التي كانت عليها ، بمعنى هل أخذت من المادة والنعيم الذي عاشت فيه الأسباب التي تصلها بالله رب العالمين فتعبده وتشكره وتذكره ولا تنساه ؟

الجواب : الظاهر أن هذه الحضارة جنحت إلى المادية ، وأن الروحية فيها لم يكتب لها أن تعمر طويلا ، ولذا فقد انهارت انهيارا شديدا بقدر ما ازدهرت ، بل كان انهيارها أشد من ازدهارها .

يقول الأستاذ توفيق سبع (نرى من خلال العرض القرانى لآثار تلك الحضارة ، أنها حضارة تمثلت فى وجود مادى ملموس من هذه البساتين النضرة ذات الأفياء والظلال- فهما جنتان عن يمين وشمال قد تجلت فيها دقة الفن وهندسة التنسيق وجودة الثمار) (٣) .

فعنصر المادة إذن قد تغلب على هذه الحضارة ، وحينما تتغلب المادة على الروح فإن الأمور لاشك تنقلب وتحدث الاختلال وعدم الاتزان ، وهو ما حدث بالفعل لأهل هذه الحضارة ، فعمت بينهم الفوضى وكفر

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٥٢٢ .

(٢) سورة الرعد اية (١١) .

(٣) قيم حضارية في القرآن الكريم : مرجع سابق ج ١ ص٢٥ .

النعمة ، ونسيان المنعم سبحانه وتعالى ولهذا مزيد بيان عند الحديث عن نقطة : لماذا انهارت حضارة سبأ .

من مظاهر العظمة فى حضارة سبأ :

يقول الله – تبارك وتعالى " وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ " (١)

إن من مظاهر العظمة وتمام المنة على أهل هذه الحضارة جعل الأمن حاصلاً لهم فى أسفارهم كما هو حاصل لهم فى مقامهم ، وجعل كذلك بين مساكنهم وبين القرى المباركة التى يسافرون إليها قرى أخرى ظاهرة ، واضحة العلامات تؤمن سفرهم وتساعدهم على راحتهم كما يحتاج إلى ذلك المسافرون فى أسفارهم .

يقول الإمام القرطبى فى تفسيره للآية الكريمة " وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة " قال الحسن : يعنى بين اليمن والشام ، والقرى التى بورك فيها ؛ الشام والأردن وفلسطين .

والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء ، ويحتمل أن يكون " باركنا فيها " بكثرة العدد ، "قرى ظاهرة " قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام ، وقال قتادة : معنى " ظاهرة " : متصلة على طريق ، يغدون فيقيلون فى قرية ويروحون فيبيتون فى قرية ، وقيل : كان على كل ميل قرية بسوق ، وهو سبب أمن الطريق ... وقيل " ظاهرة " أى مرتفعة ، قاله المبرد ، وقيل : إنما قيل لها "ظاهرة " لظهورها ، أى إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظاهرة أى معروفة يقال : هذا أمر ظاهر أى معروف .

---

(١) سورة سبأ : آية ١٨ .

وقوله سبحانه : " وقدرنا فيها السير " أى جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التى باركنا فيها سيراً مقدرا من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية والمبيت فى قرية ، وإنما يبالغ الإنسان فى السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل نفسه على المشقة ونزل أينما أراد ... وقال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا ، ولو لقى الرجل قاتل أبيه لا يحركه) (١)

أرأيت إلى هذا النعيم ؟ وإلى هذه الراحة الحاصلة لهم فى إقامتهم وفى أسفارهم ؟ إن السفر يعنى عدم الراحة وعدم الاسترخاء ، وفى كثير من الأحيان يعنى عدم الأمن والطمانينة ، لكن هؤلاء كان الحاصل لهم أنهم فى أسفارهم كما لو كانوا فى حاضرهم أو فى مساكنهم ، فنعمة الأمن حاصلة لهم ، وأكثر من هذا فكل ما يحتاجون إليه موجود

وفى قوله سبحانه " سيروا فيها ليالى وأياما آمنين " يقول الإمام الفخر الرازى : أى كان بينهم ليال وأيام معلومة ، وقوله تعالى " آمنين " إشارة الى كثرة العمارة ، فإن خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون فى مثل هذه الأماكن) (٢)

ولكن هل قدر أهل سبأ هذه النعم ؟

إن الأمر كما ذكر القرآن الكريم أنهم أرادوا غير ذلك ، فلقد حكى القرآن عنهم أنهم طلبوا هذا الطلب الغريب العجيب ، " فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ "(٣)

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ج١٤ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ بتصرف يسير ، وينظر : صفوة التفاسير : للأستاذ محمد على الصابونى ج٢ ص ٥٥١ – طبعة دار الرشيد – سوريا حلب بدون .

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ج٢٤ ص ٦٥٤ .

(٣) سورة سبأ : آية ١٩ .

إنهم طلبوا بعدم الراحة وعدم الأمن ، فصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ " (١)

وصدق فيهم قوله عز وجل " فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ " وقوله عز من قائل " ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين "(٢) وقوله " أحاديث : أى يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم وفرقناهم تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا ، يقولون : ذهبوا أيدى سبأ ، وتفرقوا أيادى سبأ والضمير فى قوله " فاتبعوه " إما لأهل سبأ أو لبنى آدم (٣)

ثالثا : لماذا انهارت حضارة سبأ ؟

يخبرنا القران الكريم عن أسباب انهيار هذه الحضارة فى قوله سبحانه وتعالى : " فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ " (٤)

والسبب واضح جلى ، وهو أن القوم أعرضوا عن شكر المنعم سبحانه وتعالى وعن عبادته ، وعن دوام الطاعة ، فهم قد أمروا أن يأكلوا من الرزق ، ومن الطيبات التى رزقهم الله تعالى بها ، ومن هذه الطيبات

---

(١) سورة ابراهيم : آية ٢٨ .

(٢) سورة سبأ : اية ٢٠

(٣) تفسير الكشاف ج٣ ص ٥٦٠ ، ٥٦١ بتصرف .

(٤) سورة سبأ : الأيات من ١٦ – ١٩ .

البلدة الطيبة التى كانت على هذا القدر من الابهة والعظمة ، لدرجة ان القرآن قال " آية " وفى مقابل ذلك عاقبهم أن يشكروا ربهم المنعم الوهاب " كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور "

ولكن القوم كما حكى القرآن عنهم أعرضوا عن ذلك ، فعوقبوا بإرسال السيل عليهم ، فتفرقوا فى البلاد ، وضرب بهم المثل فى هذا التفرق كما سبق وأشرت إليه .

ويعلق الأستاذ : سيد قطب على قوله سبحانه " كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خط وأثل وشئ من سدر قليل" فيقول : (وذكروا بالنعمة نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران على القصور عن الشكر والتجاوز عن السيئات " بلدة طيبة ورب غفور " سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء وسماحة فى السماء بالعفو والغفران ، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟ ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا : "فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم " أى أعرضوا عن شكر الله تعالى وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله تعالى عليهم فسلبهم هذا الرخاء الجميل الذى يعيشون فيه ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه،فحطم السد وانساحت المياة فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة) (١)

وهذه سنة الله – عز وجل – فى خلقه " وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً" (٢) " وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً " (٣)

---

(١) فى ظلال القرآن : ج/٥ ص ٢٩٠١ .
(٢) سورة الأحزاب : آية ٦٢ .
(٣) سورة فاطر : آية ٤٣ .

وهو قانون عام وباق لا يتحرم ولا يتخلف ، فكل ما يصيب الانسان من شرأونعمة إنما هو صادر عما اقترفه من الآثام ، وقد قال الحق سبحانه : " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (١)

وقال جل شأنه " و وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ " (٢) وما أصاب أهل سبأ ، إنما كان جزاء لهم على ما قدموا وما فرطوا فى جنب الله تعالى وعدم أدائهم شكر النعمة التى طولبوا بها .

ومما سبق نخلص إلى أن الأسباب تكمن فى نقطتين :

النقطة الأولى : وتتمثل فى نسيان الخالق سبحانه وتعالى وإعراضهم عن توحيده وشكره .

ويدل على ذلك قوله سبحانه " فأعرضوا " يقول العلامة ابن كثير أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام " وجئتك من سبإ بنبإ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " وعن وهب بن منبه أن الله تعالى بعث إليهم ثلاثة عشر نبيا ، وقال السدى أرسل الله – عز وجل – إليهم اثنى عشر ألف نبى ، والله أعلم) (٣) فكان الجزاء من جنس العمل قال تعالى " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم " وكان الأحرى بهؤلاء أن يدركوا قيمة النعمة ، وأن يعرفوا حقيقة المنعم – سبحانه وتعالى –

---

(١) سورة الروم : آية ٤١ .

(٢) سورة الشورى : آية ٣٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥٢٣ والآيات : ٢٢-٢٤ من سورة النمل .

ولما أعرض هؤلاء عن التوحيد والعبادة والشكر لله رب العالمين الذى أسبغ عليهم هذه النعم ، وأغدق عليهم هذا الفضل كان ذلك جحود للمنعم وكفرانا للنعمة ، فاستحقوا هذا العذاب المتمثل فى إرسال سيل العرم عليهم وإبدالهم الجنان الفيحاء بجنان أخرى فقيرة جدا فى عطائها ، ليس فيها إلا ما ذكر من أنها " ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل" " وقد ترتب على ذلك آثار سيئة كثيرة من هذه .

الآثار المترتبة على جريمتهم هذه ما يأتى :

١ – ارسال سيل العرم عليهم : والعرم : كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أنه السد ، فالتقدير : سيل السد العرم ، وقال عطاء : العرم اسم الوادى وقال قتادة : العرم وادى سبأ ، كانت تجتمع اليه مسايل من الأودية ، قيل من البحر وأودية من اليمن ، فردموا ردما بين جبلين، وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الأعلى، ثم من الثانى، ثم من الثالث،على قدر حاجاتهم فاخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأر فنقب الردم .. حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ، فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ وفاض الماء على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم ، وقال الزجاج : العرم اسم الجرذ الذى نقب السّكر (١) عليهم .. فنسب السد إليه لأنه بسببه .

وقال ابن الأعرابى : العرم من أسماء الفأر وقال مجاهد : العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى فى السد فشقه وهدمه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا : أن العرم المطر الشديد (٢)

وأيا ما كان الأمر فإن العرم هو سوط عذاب سلطه الحق تبارك وتعالى على أهل سبأ بسبب جنايتهم على أنفسهم بكفرهم النعمة وجحودهم للرازق سبحانه وتعالى :

---

(١) السّكر : هو ما يسد به النهر ونحوه ، المعجم الوسيط ج١ ص ٤٣٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٤ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ باختصار .

٢ – من الآثار أيضا : تبدل حال الماء من النعمة للنقمة ، فبعد أن كان الماء نعمة نافعة لهم – يتمكنون فيه من خلال السد الذى بنوه – فى بناء النهضة الزراعية وتشييد المساكن الجميلة ، أصبح الماء نقمة ووبالا عليهم ، فغرقت مساكنهم وجفت زراعاتهم وغرق بعضها ، وخربت ديارهم وتفرقوا فى البلاد .

٣ – إبدالهم جنات فقيرة بدل الجنان اليانعة الوفيرة : فتبدلت الجنان الكريمة المعطاة واليانعة المنظر إلى جنات أخرى ليس فيها إلا القليل من النعم كما قال الحق سبحانه " وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل " .

يقول الإمام الفخر الرازى : " وهذا بيّن به دوام الخراب ،وذلك لأن البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة ، فإذا تركت سنين تصير كالغيضة تلتف الاشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها ، فتقل الثمار وتكثر الاشجار ، والخمط : كل شجرة لها شوك أو كل شجرة مرتها مرة ، أو كل شجرة مرتها لا تؤكل ، والأثل : نوع من الطرفاء ، ولا يكون عليه ثمرة إلا فى بعض الأوقات ... والسدر : معروف ، وقال فيه قليل لانه كان أحسن أشجارهم فقلله الله تعالى (١)

هذه الآثار ترتبت على جريرتهم الشنعاء على أنفسهم وعصيانهم بعدم الشكر لله عز وجل رب العالمين ، وفى ذلك عبرة لأولى النهى ، وفى ذلك مزيد من البيان – إن شاء الله تعالى – عند الحديث على الدروس المستفادة .

النقطة الثانية من الأسباب التى أدت إلى انهيار سبأ وهى:

طغيان المادة وإغفال الروح : وأى حضارة تقوم على المادة ، وتعتمد عليها ، وتغفل الجوانب الروحية ، فلن يكتب لها الدوام أو البقاء بل يكون مآلها حتما إلى زوال ، وهو ما حدث بالفعل ، لحضارة سبأ ،

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٤ ص ٦٥٢ ، ٦٥٣ بتصرف يسير .

وكذلك حضارة عاد ، وحضارة ثمود فإنها (حضارات مادية تمثلت فى الوجود على شكل فنون جميلة من النحت وبناء القصور ، وإقامة المساكن والبيوت ، لكنها أعرضت عن الله تعالى " فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ "(١) ومن خلال هذا العرض نستطيع أن ندرك أن الحضارات سلسلة محكمة السرد موصولة الحلقات وأنها جميعا تخضع لقانون واحد ، وتنهض على أساس واحد ، ويطرد سيرها إذا استقامت على أمر الله تعالى ونفهم كذلك أن الكيان المادى لأية حضارة وان كان يمثل عبقرية أصحابه فى الفكر والعمل والإبداع ، لكن لا يستقر ولا يستمر ولايا من العثرات حتى يحقق الجانب الروحى بالاستقامة على منهج الله الحق وتحقيق مشيئته فى الأرض (٢)

وبالحق فلقد كان أهل سبأ ، كما أخبر القران عنهم من هذا النمط المادى الذى لم يستجب لدعوة الحق ، فطغت عليهم المادة ونسوا ربهم فكان ما كان جزاءا وفاقا لهم .

رابعا : الدروس المستفادة من حضارة سبأ :

إن الذى يستقرئ حال العالم الذى نعيشه من شماله إلى جنوبه ، ومن شرقه إلى غربه على اختلاف أجناسه وتباين لغاته واعتقاداته يجد عجبا ، ويتمثل هذا العجب فى أمور كثيرة من أهمها طغيان المادة ، ونسيان الخالق سبحانه وتعالى .

وهذا الأمر قد حدث فى أمم سابقة ، تحدث القران الكريم عنها ليلفتنا إلى الإفادة منها ولتكون لنا تذكرة وتعيها أذن واعية .

وفى حضارة سبأ دروس عظيمة حرى بنا أن نتوجه إليها لتكون عونا لنا فى ربط الماضى الذى قصة القرآن الكريم بالحاضر الذى نعيشه لا سيما وقد أمرنا الحق بقوله " فاعتبروا يا أولى الأبصار " (٣)

---

(١) سورة الأعراف : آية ٧٨ .

(٢) قيم حضارية فى القرآن الكريم حـ١ ص ٣٧ بتصرف – مرجع سابق .

(٣) سورة الحشر : آية ٢ .

ومن هذه الدروس ما يأتى :

١ – إن الاتجاه الى الله – عز وجل – والسير على المنهج الذى شرعه، يؤمن الامة من الزلل ويسلمها من العثرات ويبعدها عن الضلالات ، وإن أهل سبأ لما أعرضوا عن الله – سبحانه وتعالى – كان مآلهم إلى الزوال والخسران ، ولازال القرآن الكريم يرشدنا إلى مثل هذا فى كثير من آياته ومن ذلك قول الحق سبحانه " وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا " (١)

وقوله – عز وجل – " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد " (٢)

وقوله عز شانه " وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ " (٣)

٢ – شكر النعمة سبيل إلى زيادتها،وكفرها طريق إلى بوارها : وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (٤)

وهذا وعد من الله لا يتخلف ، لكن أهل سبأ لما دعاهم تعالى أن يشكروه،لم يشكروه فزالت النعمة وتفرقوا فى البلاد وتبدل حالهم من الأمان الى الخوف،والقرآن الكريم يحذرنا من ذلك ويبين لنا أن قرى أخرى كفرت بانعم الله تعالى فاذاقها الله لباس الجوع والخوف جزاءا وفاقاً لهم على ما اقترفوا .

---

(١) سورة الطلاق : اية ٨ ، ٩ .
(٢) سورة هود : اية ١٠٢ .
(٣) سورة هود : اية ١١٧ .
(٤) سورة ابراهيم : اية ٧ .

يقول الله تعالى " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ " (١)

وقوله جلت قدرته " وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا اخَرِينَ " (٢)

وقوله سبحانه " فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ " (٣)

وقوله جل شانه " وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ " (٤)

وقوله تعالى : " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ "(٥)

وهذه الآيات تحثنا على أن نتوجه إلى الله تعالى فنعبده ، ولا نشرك به ونشكره ولا نكفره .

٢ – الموازنة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد ، فلا تطغى كفة على أخرى ، حتى يحدث التوازن بين المادة والروح ، وقد رأينا فى الحضارات التى قصها علينا القرآن، الكريم مثل عاد ، وثمود ، وسبأ ، رأينا أن هذه الحضارات لما غلبت المادة فيها على الروح كان مآلها إلى زوال ، وقد تحدثت عن هذا المعنى عند الحديث فى النقطة الثالثة من أسباب انهيار حضارة سبأ .

---

(١) سورة النحل : آية ١١٢ .
(٢) سورة الأنبياء : آية ١١ .
(٣) سورة الحج : آية ٤٥ .
(٤) سورة القصص : آية ٥٨ .
(٥) سورة الأعراف : آية ٩٦ .

٤ – أن نطلب التيسير ونتجنب الشدة والتعسير ، فإن أهل سبأ لما طلبوا التعسير على أنفسهم فى أسفارهم،بطلب إبعاد المسافات حيث قالوا أى أهل سبأ " رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا " ظلموا أنفسهم ظلما شديدا فلنعلم أن طلب الأصعب يودى بالأمة إلى حياة الشقاء والتعاسة ، ولنعلم كذلك أن ديننا الحنيف يقوم على التيسير لا على التعسير .

قال الله تعالى " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " (١)

٥ – إن الحضارة التى ينشدها دين الاسلام هى التى تلبى حاجات الإنسان ، وتقوم على التطور والأخذ بأساليب العلم ، دون الإخلال أو التفريط فى حق الله تعالى ، ودون الإخلال بحق الآخرين من بنى الإنسان ، وهى حضارة دائمة ومتصلة ، وتعمل على نفع الآخرين وإبعاد الضرر عنهم ، دون حب النفس ، أو تعال بمن أو أذى ، وآيات القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه والصلاة والسلام فيهما الكثير مما يشهد لذلك

إننا لا نجد حضارة أسمى ولا أرقى من حضارة الإسلام ، تلك التى جمعت بين العدل والرحمة والمساواة والشورى ، ليس هذا فحسب ، بل قدمت الخير للإنسانية كلها فى شتى مناحيها المادية والروحية ، وماذلك إلا أنها ترتكز على الأصلين العظيمين ، القرآن الكريم والسنة المطهرة ، واللذان كانا فى غاية الدقة والانصاف والعدل والرأفة للبشرية جميعا ، ومهما قال أعداء الإسلام من تزييف للحقائق الإسلامية،فإن هذا لا يغير من وجه الحقيقة شيئاً ، وفضلا عن إدراك المسلمين لهذا فقد شهد به كل منصف من غيرهم . يقول رينان " إن القرآن الكريم هو اساس الإسلام ، وقد احتفظ بكينونته القديمة،بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف، وعندما نستمع إلى بعض آياته،وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة الوله والوجد وبعد أن نتوغل فى دراسة روح التشريع التى تنطوى عليها بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعنا إلا أن نعظم هذا الكتاب العلوى ونقدسه

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

وقد دلتنى تحرياتى العلمية أنه لا حجة مطلقا لما أريد إلصاقه بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم من كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية والعادات القومية، التى أراد بعض المتحاملين مثل – فولتير – أن يوجهوها إليه .. وهى افتراءات ذميمة وقحة كقولهم: إنه كان يميل الى التسيد والسيطرة، مع أن التاريخ يثبت أمانته وصدقه وتواضعه وأنه لا يحمل الحقد لأحد، وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهرا رقيق الشعور(١)

وشهادة ريتان هذه لحضارة الإسلام شهادة منصفة ، وإن كان الإسلام لا يحتاج إلى ذلك، فحضارة الإسلام بحق أحيت عالما من الأموات وحررتهم من رق العبودية للبشر إلى العبودية لرب البشر ، وهى حضارة تدعو إلى العلم ، لكنه العلم المنضبط بنور الوحى ، وهى حضارة داعية إلى كل الفضائل التى تحفظ للإنسان كرامته وعرضه ودينه ، فهى تسمو بالانسان إلى الآفاق العليا والتاريخ شاهد على ذلك .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) بين الحضارات والديانات لطه مرور نقلا عن قيم حضارية فى القرآن الكريم مرجع سابق ج٢ ص ٧٥ .

المراجع

القرآن الكريم

(١) البداية والنهاية : للإمام الحافظ ابن كثير – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .

(٢) تفسير القرآن العظيم : للإمام ابن كثير – طبعة شباب الأزهر – مكتبة الدعوة بالقاهرة – بدون تاريخ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : للإمام أبى عبد الله القرطبى – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٩٥م دار الفكر لبنان – بيروت .

(٤) حقيقة الإسلام فى عالم متغير العدد ٨٧سلسلة قضايا إسلامية إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

(٥) صفوة التفاسير : للأستاذ محمد على الصابونى – طبعة دار الرشيد – سوريا – حلب بدون تاريخ

(٦) فى ظلال القرآن : للأستاذ : سيد قطب – الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٧م – ١٤٠٧هـ – دار الشروق .

(٧) قيم حضارية فى القرآن الكريم : عالم ما قبل الإسلام : للأستاذ توفيق محمد سبع – طبعة دار المنار – بدون تاريخ .

(٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : للإمام ابى القاسم الزمخشرى – الطبعة الاولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٩) المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية : للدكتور إبراهيم أنيس وآخرون معه – الطبعة الثانية – دار المعارف ١٩٧٢م

(١٠) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير : للإمام فخر الدين الرازى – الطبعة الأولى ١٩٩٢م – ١٤١٢هـ دار الغد العربى .

(١١) مجلة الأزهر عدد جمادى الآخر ١٤٢٥هـ أغسطس ٢٠٠٤ م ج٦ .